أصوات في الليل

قصة بقلم
أبو المعاطي أبو النجا

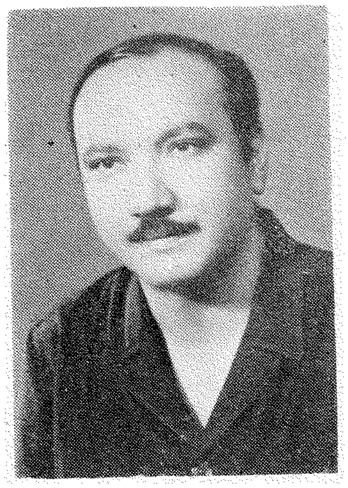

ضاعت معالم الصوت الذي أيقظه فجأة من نومه ، ضاعت في اللحظات الفاصلة بين النوم واليقظة ، ولم يتحرك في سريره حركة واحدة ، متوقعا ان يتكرر الصوت ، أو يتكرر ما يكشف عن طبيعته . ولكن شيئا ما لم يحدث . ومع كل لحظة تمضي ، كان سكون الليل يزيد الهوة بينه وبين معالم الصوت الضائع ... بقيت أصوات الليل الرتيبة تتردد في هدوء ... صوت المنبه يأتي من الصالة في انتظام ، أنفاس زوجته النائمة بجواره تتردد في ايقاع يشي باستغراقها في نوم عميق ! بالتأكيد لم تسمع نفس الصوت ! أكان هذا الصوت جزءا من حلم رآه هو وحده !.. عبثا حاول ان يتذكر هذا الحلم ، أمكنه أن يتذكر ، بعد قليل ، ان الصوت كان يشبه صوت سقوط جسم وانكساره . طبق أو ما أشبه ! ولكنه تذكر في نفس اللحظة انه أغلق باب شقته قبل ان يأوي الى فراشه كما أغلق كل النوافذ ، مستحيل أن يكون ثمة لص في شقته ، فحوادث السرقة في الحي الذي يسكنه شبه نادرة ، فمن يجرؤ على اقتحام شقة في عمارة كبيرة بها ما يؤكد وجود أصحابها ؟ ففي الصالة لمبة قوة خمس شمعات تبقى مضاءة طول الليل ، حتى اذا استيقظ احد الاطفال ليلا أبصر طريقه الى دورة المياه دون خوف ! وأسرة البواب ذي الستة أولاد تحتل مدخل العمارة ، ربما استيقظ احد اطفاله هو ليشرب ، فأسقط كوبا او طبقا من مكانه ، ولكنه كان لا بد ان يسمع صوت أقدامه وهو عائد الى حجرة نومه ! بالتأكيد ان ما سمعه كان صوتا في حلم ، لماذا يصر على تذكره ؟ أيسر من تذكر الحلم ان يترك فراشه، ليطمئن على ان كل شيء على ما يرام في شقته ، ثم يعود الى النوم ! برودة تلك الليلة أبعدت هذا الخاطر عن رأسه . لو أسلم نفسه مرة أخرى للرقاد لانزلق بسهولة الى الحلم الذي أيقظه ، وآنذاك يمسك به ، بذلك الحلم المراوغ من جديد ، وسحب البطانية على رأسه ، وأغمض عينيه ، واستسلم للنوم !!

* * *

راح يهبط في سهولة درجات سلم العمارة ، كما لو كان ينزلق عليها ، ودون ان يخشى السقوط . ضوء الصباح الباكر ينير طريقه على السلم . أبواب الشقق مغلقة وساكنة لا تزال . لا حركة وراءها . يرتدي ثياب الخروج كاملة ، لا يحمل حقيبة اوراقه الخاصة ، عم محمد البواب يفرك النوم عن عينيه في مدخل العمارة ، لا أحد يمكنه الدخول او الخروج دون ان يشعر به ، عم محمد ضخم الجثة ، كثيف الشارب ، جلبابه المفتوح على صدره ، حتى في ايام الشتاء ، يكشف عن غزارة شعر صدره . شعره كله ابيض ، عدا شعرات في شاربه ، صفراء من التدخين . مظهر القوة البادي على عم محمد لا يتسق مع شحوب وجهه ، وبطء حركته ، وتثاقل صوته حين يهم بالكلام . أولاده الستة يتكومون في الحجرة الجانبية الواطئة في مستوى بدروم العمارة . حراس العمارة لا يزالون نائمين تسترهم أسمال بالية ، ويحرسهم من برودة البلاط ، وبرودة الجو ، حمل صوفي وحيد تتجاذبه الاقدام ، والايدي ، طوال الليل ، وفي النهار يتخذه عم محمد متكأ له في جلسته المهيبة امام مدخل العمارة ! عم محمد وحده هو الذي ينام في المدخل ذاته غير عابىء ببرد الشتاء، يلوذ بمقعد رخامي ، كأنه تمثال مصري قديم ، ملقى بغير عناية في غير مكانه ! حين أبصره عم محمد نازلا في هذه الساعة المبكرة ، زاد من حركة جسمه المتثاقل ، وسعل سعلة خفيفة ليكون مستعدا لرد تحية الصباح !.. هم بأن يسأله اذا كان قد سمع في الليل أصواتا ، او حركات لداخل او خارج ، ولكنه تراجع ، حين تذكر ان السؤال سوف يجر الى سؤال ، وانه هو نفسه لن يجد ما يقوله لعم محمد . لو انه قال له : لماذا لم تقم سعادتك لتتأكد من مصدر الصوت في شقتك ؟ وهل سرق شيء من الشقة ؟ كيف نزل دون ان يتأكد من ان شيئا ما قد سرق ؟!

- صباح الخير يا عم محمد !
- صباح النور يا بك !
- هل جاء بائع اللبن ؟
- لا يجيء في مثل هذا الوقت !
- حين يأتي أرسله الى شقتنا !
- هو يذهب بنفسه كالعادة في موعده !

هل أدرك الرجل الضخم الابله بلاهة الاسئلة ؟
لا يبدو انه أدرك شيئا ، كان يجيب بجدية كاملة وبتثاقل !

عاد يصعد السلم قفزا ، ليجد انه أغلق باب شقته دون ان يكون معه المفتاح . ماذا يقول لزوجته عن نزوله في مثل هذا الوقت ؟ دقات قلبه الذي أتعبه الصعود تختلط بدقاته للباب : ماذا يقول لزوجته حين تفتح له ؟ كانت نائمة حين غادر الشقة ، وكذلك الاولاد ، كيف نزل ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟

بدت له الاجوبة اكثر غموضا من الاسئلة . حمد الله لانه أخطأ

فدق الباب ، دون ان يدق الجرس ، فوجيء بالباب ينزاح تحت دفاته في بطء عن مكانه ، لم يكن الباب مغلقا اذن ؟ في الشتاء يصعب احكام اغلاق الباب الا بمجهود ، ينضغط الباب بين المصراعين بسبب الرطوبة ، فيبدو وكأنه مغلق ، ويحتاج اغلاقه او فتحه الى مجهود كبير ! كيف نسي هذه الحقيقة عن باب شقته ، كثيرا ما كانوا يتركونه هكذا ليالي كثيرة ، ظانين انه قد تم اغلاقه ، وفي الصباح يكتشفون انهم لم يسرقوا بسبب من حسن حظهم لا أكثر ، متى ألا نصحو زوجته على صوت الباب المفتوح عنوة ، حتى لا تقول له : أين كنت ؟ ولماذا خرجت في هذا الوقت ؟ زوجته لم تصح من نومها الثقيل ، هو الذي صحا هذه المرة ايضا من نومه ، ممسكا هذه المرة بحلمه المراوغ .. ولكنه حين استيقظ ، كان صوت الباب المفتوح عنوة ، لا يزال يملأ أذنيه في قوة !

وتذكر على الفور الصوت الاول : صوت الطبق المكسور ، ثم هذا الصوت الثاني : صوت الباب الذي يفتح او يغلق عنوة . لا يدري .

والويل له لو فقد القدرة على التمييز ، بين الحلم المراوغ ، أو الحقيقة المراوغة !

* * *

هذا الضوء الخفيف القادم من الصالة عبر زجاج باب حجرة النوم ، حقيقة لا شك فيها ، وسكون الليل ، ووعيه بهذا كله . كيف يختلف وعي الانسان في الحلم ، عن وعيه في اليقظة ؟ والى أي مدى ؟ احيانا كان يعي في حلمه انه يحلم ، دون ان يوقظه ذلك من حلمه ..

وحين كان يصل الى هذه الدرجة الشفيفة من الادراك ، ينتابه فرح شيطاني : يفعل كل ما يعجز عن فعله في الواقع . يحاول الامساك بالمستحيل . يقفز في المنحدرات ، ويستحم في الاماكن البعيدة عن الشواطيء . يرتفع صوته بكل ما يخاف ان ينطق به .. يتحرر من قيود الزمان والمكان .. يتحدى المخاطر مطمئنا الى ان اللحظة المهلكة ، حين تجيء ، سوف ترمي بأشلائه الممزقة ، الى شاطيء اليقظة ، فيصحو مرتعدا ، ململما بقايا فرحه بالمغامرة ، التي يدرك مدى عقمها ..

لعالم الاحلام جغرافية خاصة ، فثمة اماكن بعينها تتردد في احلامه : أشجار ، وحقول ، ومساق ، وتلال . في الحلم يتذكر انه رآها في حلم سابق ، وقد لا تشبه أي شيء يراه في يقظته ، ويتوقع انه سيرى ، على الفور ، وجوها تنبت في نفس الاماكن ، وتجيء الوجوه بنفس الملامح . وجوه لا تكبر او تصغر ، فزمن الحلم شبه ثابت ، وربما كان هذا هو الفرق بين اليقظة والحلم : الزمن . وعي الانسان بالزمن ! دقات المنبه الرتيبة تأتي من الصالة شاهدا آخر على ان ما يشعر به الآن ليس حلما .. هل يقدر انسان على ان يبصر في احلامه ساعة تحسب الوقت ؟ وان يعي حركتها خلال لحظة الحلم، الويل له لو فقد القدرة على التمييز بين اصوات الحلم ، واصوات الحقيقة ! بين الزمن الثابت والمتحرك ؟ اذا كان هبوط السلم وصعوده حلما ، فان صوت الطبق المكسور ، والباب المفتوح عنوة ، يتأرجحان في ذلك الخيط الدقيق ، الذي يفصل بين الصحو والمنام ، هل ينتسبان الى الحلم ام الى الواقع ؟

وهل كان الباب يفتح أم يغلق ؟ هل انتهى كل شيء ام انه يبدأ الآن فقط ؟

نظر في ساعة يده الفسفورية . لا يزال الوقت مبكرا جدا ،وقت يناسب اللصوص تماما ، وعليه ان يتحرك الآن من فراشه ، ليضع حدا لهواجسه ، وقبل ان يعبث به دفء الفراش ، ويرمي به الى حلم آخر ، يغرر به ، ويخدع حواسه ! ان ما يسمعه الآن حقيقي تماما ، ولكن الحقيقة تبدو غارقة في السكون ، ويلفها ظلام شفيف ، ولا تبدو لها ملامح ، ومن المستحيل ان يدخل لص شقته ، ثم يجلس هادئا ، في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ، حتى يعاود اصحاب البيت نومهم ، لو ان دخوله أيقظهم ؟!

احيانا ، كان يفكر في طبيعة تلك اللحظة ، التي ينتقل فيها الانسان من اليقظة الى النوم ، محاولا ان يمسك بها ، ولكنها لحظة مراوغة ، ككل شيء في حياته الآن !.. فحين تجيء ، يكون الانسان قد نام فعلا ، واذا ظل محتفظا بدرجة كافية من الوعي ، لتأملها ، فانها لا تأتي ابدا ، ولا يأتي النوم . يا لها من ليلة مناسبة ، لمثل هذه التجربة ، فلا ينبغي ان يستسلم للنوم ، قبل ان يتأكد من حقيقة الاصوات ، التي يشك في انتمائها الى عالم الاحلام !

تقلبت زوجته في الفراش ، أدارت وجهها ناحيته . ردد سكون الشقة صوت هذه الحركة العابرة ، فكيف يتحرك اللص دون صوت ؟

لماذا لا يهيىء له سبيل الفرار بحركة اخرى أعلى صوتا ؟ يشعر اللص بحركة اصحاب البيت ، فيؤثر الفرار على المواجهة ، فاللص جبان مهما تسلح . متى سمع بهذه الكلمة ؟ لو ان صوت الباب المفتوح عنوة ، كان هو البداية ، فلا بد أن يسمع حركة تالية ، اما اذا كان هذا الصوت هو النهاية ، فلن يسمع سوى السكون ، ولن تكون ثمة جدوى من قيامه او حركته .. فلينتظر بعض الوقت ، وبمقدوره ، لو ان اللص لم يخرج ، ان يحدد مكانه من حركته ، وان يفاجئه فيتمكن منه . هل هو لص واحد أم اكثر ؟ واذ فاجأ احدهم، فهل يلوذ الآخرون بالفرار ، أم تقع الواقعة ، وتحدث المأساة !

من جديد تحركت زوجته . فوجيء هذه المرة بحركتها ، خاف ان يغطي صوت حركتها أي صوت آخر ، ليتها تبقى نائمة ، حتى لا يتدخل خوفها في الموقف ، ويفرض عليه ، او على اللصوص ، ما لا ينبغي من السلوك الطائش !

ينتعل اللصوص أحذية كاوتشوك ، فلا يكون لحركتهم اقل صوت ، ولكنهم لا يمكن ان ينقلوا شيئا ، دون ايه اصوات !

في الصالة جهاز تلفزيون ، وراديو ، وريكوردو ، ومجموعة من الفازات البلورية الغالية ، ضمنها تمثال يعتز به لأبي الهول ! وكلها غنائم يسهل حملها ، لو استعان اللصوص بسيارة خاصة تنتظرهم في الخارج . الملابس ، والحلى ، والنقود ، هنا ، في حجرة النوم ، ولا يمكن ان يفكروا في اقتحامها ، فاللص جبان مهما ... من الذي قال هذه الكلمة السخيفة ؟ كيف يكون جبانا من يقتحم منزلا على ساكنيه ؟! وماذا لو اقتحم الحجرة ، وفي يده مسدس ؟ أن بمقدوره ان يطلب منه ان يعاونه في تسليم النقود ، والحلى ، والملابس ؟.. وأن ... « صوت اصطدام بأحد كراسي السفرة . اقدام الكرسي تزحف على بلاط الصالة » ثم تصمت صمتا مريبا ، ترتجف له أوصاله ، ويتصبب منه عرق غزير بارد . لو كانت زوجته يقظى ، لسمعت دقات قلبه .. أغمض عينيه تماما ، بينما تيقظت كل خلية في جسده ، متوقعا ان يفاجأ بمن يفتح باب حجرة النوم . او ... قد ينقذ التظاهر بالنوم كرامته على الاقل ، امام الزوجة والاولاد !.. كأنه فوجيء مثلهم بما يحدث . متى سمع بهذه السخافة الاخرى التي تقول : ان الصدمة قد تدفع الى النوم ، او الاغماء ، كما تدفع الى اليقظة !.. يا ليلة السخافات المرعبة ، متى تنتهي ؟ سمع ، وهو مغمض العينين ، أنفاس زوجته تتردد ، في هدوئها العميق .. من له بنوم النساء والاطفال ؟! متى بدأ يفتح عينيه في رفق ، كأنه يخشى ان توقظ حركة اجفانه أحدا ، او يراها احد ؟.. فوجيء بنور الصالة مضاء .. لم يصدق عينيه ، هل بدأ يعبث به حلم آخر ؟ أم ان الحقيقة هي التي تعبث به هذه المرة ؟.. ربما كان احد اطفاله في طريقه الى دورة المياه ... لا يجرؤ لص على اضاءة النور . قد يستخدم بطارية صغيرة ، أما أن يضيء النور ؟ توقع ان يسمع

باب الحمـــــام يفتح ، او يغلق . ان يسمع صوت السيفون ، او الشفاطة ، ولكن السكون المراوغ عاد يطبق على شقته ، استبعد ان ينادي باسم احد الاولاد ، خشية ان يرد عليه السكون ، ان يكـــون الرد حركة قاتلة ، وقد ينم صوته عما يعانيه ، او يوقظ من يريد نومهم ، في تلك الليلة المرعبة . عليه ألا يفقد القدرة على السلوك السليم . أول خطأ في التقدير ، قد يعرضه مع اولاده لمأساة فاجعة ، دونها بكثير ان يفقد بعض محتويات شقته ، كل شيء يمكن تعويضه ، عدا الحياة ! حياته او حياة اي فرد في أسرته . لكن ، ماذا لو ان احد اولاده ، قد سمع نفس الصوت الذي سمعه ؟ لماذا لم يعـــد يسمع صوت المنبه ؟! لا يمكنه ان يتأكد من نوم اولاده في حجرتهم ، مثلما هو متأكد من نوم زوجته ! وقد يرتفع صوت أحدهم الآن مناديا : بابا ، او ماما ؟! وآنذاك يخضع كل شيء للمصادفات المرعبة ، وقد تحدث الفاجعة !

داخله اطمئنان مستريب ، حين بدأ يسمع صوت أقدام تتحرك في الصالة .. تتحرك هذه المرة بهدوء وثقة .. أقدام صاحب بيت .. لا تملك اقدام اللصوص مثل هذا الثبات .. ولكنها لا تتحرك في اتجاه دورة المياه .. تبدو وكأنها تتحرك جيئة وذهابا في الصالة . صوت باب الثلاجة المغناطيسي يفتح ، ثم يغلق في قوة . لم يعد لديه شك في انه احد الاولاد يبحث عن طعام ، ربما نام دون عشاء وأيقظته لسعة الجوع .. كيف يكون للحقيقة مثل هـــــذه القدرة على الخداع ، والمراوغة ؟ هذا النوع من اللصــــوص لم يظهر بعد في بلاده ، اللص الجريء ، الواثق ، الهادىء ، الذي يخدع حتى البوليس ، ويخيف حتى السلطة ، ويسلك كصاحب حق ، لم يلتق به سوى في أفـلام السينما الاميركية ، لصوص بلاده مثل ناسها طيبون عادة ، وخائفون كثيرا ، وبعضهم يسرق بدافع الجوع ، ويطلب من الله الستر ! لماذا لا يرتفع صوته بكلمة واحدة تشي بثقته ؟! أحس كأن صوته محتجز . يحاول ان ينادي ، لكن احدا لا يسمعه . هو وحده الذي يســـمع الاصوات في الصالة ، تزداد وضوحـــا ، وثقة ، وهدوءا . بعض الابواب تفتح وتغلق دون حرص ، كما يحدث في أي وقت من النهار ، كيف لا تصحو زوجته بعد كل هذه الاصوات ؟

لعله تعب النهار ! لم يتصور ان يكون للتعب مثل هذه المكرمـة ! لو سمعت هذه الاصوات ؟ او عاشت هذه الهواجس ؟ ربما لدفعهـا الخوف ، او الحماقة ، او الثقة ، الى ما لا يدري من الســــلوك الطائش ! هل يداخله شك في انه احد ابنائه ؟ كيف يوضح لهـــا ، او للاولاد ، ما لا يمكن ان توضحه الكلمات وحدها ؟ وحتى لو تركه اللصوص يفعل ذلك ، فكيف يفهمهم ان وجوده ، مجرد وجوده ، أهم من كل شيء يمكن ان يخسروه ؟ بعض الناس في حاجة الى عمر كامل ، ليدركوا هذه الحقيقة ! كيف يفهمهم ، ثم يبقى أبا مسموع الكلمـة ، مستحقا لاحترام اولاده وحبهم ؟ كيف يقول لهم ان اعظم شيء يمكـن ان يفعلوه ، في هذه الليلة ، ان يظلوا نائمين ، حتى يوقظهم ضـوء الصباح ؟

هل استيقظ أحد اولاده في تلك الليلة المرعبة ، ليكشف عنـه كل الاغطية ، وكل الثياب ؟ لا ، فالخطوات الهادئة ، الواثقة ، تزداد وضوحا وثقة ، والنور يطفأ هنا ، ويفتح هناك ، والابواب تفتح وتغلق كانما ركلا بالاقدام ، والاصوات تصبح كلمات ، كلمات لها حروف ، وتوشك ان يصبح لها معنى .. ولن يجدي النوم او التناوم ، امام صلافة اللصوص ! كان كرامته هي ما يريدونه في تلك الليلة ! وحتى لو ترك مكانه ، ليسلمهم بنفسه كل شيء ، فواضح انهم لن يقتنعـــوا بغير اذلاله . هل بدأ يفقد القدرة على التفكير السليم ، والســلوك السليم ؟ وهل ضاعت منه ، كما تضيع دائما ، تلك اللحظة الفاصلة بين النوم واليقظة ؟

ـ يمكن ان ننام هنا في الصالة .

ـ مستحيل ، الجو بارد !

ـ لا معنى لان نوقظهم حتى نحصل على غطاء .

ـ لسنا غرباء ... أنتم اصحاب بيت هنا .

ـ هنا دفاية في الركن ... ثم لا نشغلها ؟

عبثا حاول ان يتذكر الاصوات .. أقاربه في القرية لا ينطقون بهذه اللهجة ، أصدقاؤه في المدينة لا يمكن ان يصل بهم الجنـــون الى هذا الحد .

ـ لسنا غرباء ... أنتم اصحاب بيت !

الصوت الذي نطق بهذه العبارة ، مألوف لديه ، الفته لـــه ترجع لعشرات السنين ، وعبثا حاول ان يتـــذكر ، وعبثا حاول ان يتحرك ... كل شيء يخرج من يده : الحقيقة ، والحلم ، وحتـــى الذاكرة ! لا سيطرة له حتى على جسده . أين هي تلك اللحظـات السعيدة التي كان يعي فيها ، وهو يحلم ، انه يحلم ، ثم يندفع الى المخاطرة ؟ لو كان ما يراه كابوسا ، فيجب ان يصحو منه ، ولو كان حقيقة ، فلا مفر من المواجهة !

ها هم قادمون . اكرة الباب تتحرك . يراهـا تتحرك . الباب، باب حجرة النوم ، يفتح فتحة صغيرة . في ضوء الشعاع الذي تسلل من الفتحة ، رأى أذنيه . نعم ، أذنيه الكبيرتين . في اعلى الاذن اليمنى فتحة صغيرة ، كانت اصابعه تعبث بها ، وهو طفل صغير ، هو صاحب الاذن الكبيرة المشروخة ، لا أحد سواه يجرؤ على مثـل هذا العبث المروع ، « العم سليم الشامي » ، رغم ان ملامحه كانت مكسوة بالظلال ، فهي هي . لم تختلف منذ آخر مرة رآه فيها ، منـذ ثلاثين عاما لا يكبر . لا ينال الزمن من وسامته ، من قدرته على صنع الغرائب . أغلق الباب واختفى فجأة ، كما ظهر فجأة ! كأنما ليمهله ، ليمنحه فرصة للتفكير ، للتذكر .. يتذكر الآن ، فقط ، ان آخر مرة، رآه فيها ، كانت في الحلم . حلم طويل متقطع ، وممتد على مــدى السنين ، حلم ظل يطارد لياليه ! كل ذلك كان معقولا . اما ان يتحول الحلم الى حقيقة ؟ فهذا ما يصيبه برعب حقيقي ، دونه بكثير رعبه من اللصوص ! أحيانا لم يكن يصدق ، ان قصة « الشامي » يمكـن ان تنتهي الى الابد . كأنما كانت عودته ، في الحلم ، نذيرا بعودته في الحقيقة . أول مرة رآه فيها ، رأي العين ، كانت في الليل . وهو طفل مستكن في عباءة والده ، والعم سليم يتكلم كلاما عذبـا ، رائقا ، وصافيا ، وأبوه يسمع في دهشة ، وانبهار ، قصة القرابة القديمة بين الاجداد ، وزيارات قديمة للقرية . بعد أقل مـــن شهر واحد ، رأى في عيون كل الناس ، في قريته ، نفس الدهشـــة ، والانبهار ، وأصبح « العم سليم » الذي لا بيت له ، ولا زوجة ، ولا ولد ، يتنقل بين كل البيوت ، ويأكل على كل الموائد ، ويحبه جميع الاطفال ، وتحبه اكثر أمهاتهم ! حلاوته لا تنسى ، قدرته عـــلى حل المشكلات لا تنتهي ، لبياضه المشرب بالحمرة ، ولدقة ملامحه . كانوا يسمونه « الخواجة سليم » او « العم سليم الشامي » : من يبيـــع الارض ، ومن يشتريها ، ومن يزرعها ، ومن يطحن الحبوب ، ومـن يداوي الحيوانات ، او الناس ، ومن يصلي بهم ، ومن يرمى بهـــم في السجون ، العمدة ، والخفير ، والمدرس ، وضابط النقطـــة ، والفلاح ، والميكانيكي ، الجميع يجدون عنده حلا للمشكلات التـــي يستعصى عليهم حلها ، ولكنه هو نفسه بقي مشكلة بلا حل ، فلا احد يعرف ، حقيقة ، البلد الذي جاء منـــه ، رغم كل الحكايات ، ولا الغرض الذي بقي من اجله ، رغم كل الخدمات !

كيف يعيش في القرية رجل غريب بلا زوجة ، او اطفال ، او عمل ، يسكن مستوحدا في أحد البيوت ، تخدمه دائما بنت مـــن القرية ، يعرف كل شيء عن بلدهم ، ولا احد يعرف عنه شيئا حقيقيا يريح القلب !

من الذي رفع صوته بهذا السؤال ثم صمت ، حينما ايدته جميع العيون ، بينما خرست كل الالسنة ؟ « شلبي » الاجير الذي يزرع في ارضهم ، هو الذي كان يكنّ له كراهية عميقة : « ابن الكلب » – هكذا كان يتحدث عنه – يأكل أطايب الطعام في كل البيوت ، البخلاء لا يبخلون عليه . مكانه في الظل ، وشرابه الماء الرائق . جيوبه ملأى بكل ما يحبه الاطفال . وضحكات النساء وراء الابواب من أجله . وعيونهن عليه . والناس كلهم يتبعونه كالكلب !

كراهية « شلبي » له ، وحديثه عن هذه الكراهية ، هو الذي أفسح الطريق ، امام كراهية الناس . كراهيتهم المقهورة الخفية الغامضة !.. حتى هو ، في ذلك الزمن البعيد ، اكتشف ، بدوره ، انه يكره العم سليم ، كراهية خفية . تقاوم حلواه التي لا تنفد ، وتصطدم ، او تنفجر ، بحب أمه له ، للعم سليم ، كلما زارها في غيبة ابيه ، كلما وجدها تصر على مجالسته وتحيته ، كلما وجدها تصمت عن هذه الزيارات احيانا ، وتشير الى بعضها احيانا امام ابيه ، وأصبحت متعته ، وهو صبي ، أن يبحث عن هذه الكراهية في همسات الناس ، في نظراتهم ، أن ينصت اليها ، ان يحس بها حين يخرسون عن الكلام ، ان يطمئن الى وجودها في نفوسهم جميعا ، كأنما يخشى ان يفتقدها ذات يوم ، وأسعده ان يجد ذات هذه الكراهية ، في نفس ابيه ، في اعماق نفسه . لماذا لا يفصح ابوه عن كراهيته كما يفعل « شلبي » ؟ وتعمد ذات يوم ، ان يردد امام ابيه اقوال « شلبي » عن « العم سليم » ، وفوجيء بأبيه يصمت صمتا مريبا ، وكئيبا ، ويدعوه بدوره الى الصمت . ما الذي يحدث في هذا البلد ؟ ولماذا أمه ، وحدها ، هي التي ترحب به ، ترحيبا حقيقيا ، لا اثر فيه للكراهية ؟ رغم اذنيه الكبيرتين المضحكتين . مرة ، في احد احلامه ، حاول ان يمزق اذنه الكبيرة باظافره ، وفوجيء بأن هذه الاذن صلبة ، كأنها مصنوعة من العظم الرقيق الناعم، لحظتها تقصفت اظافره وبكى . وظل « العم سليم » يضحك ، ويقهقه، وهو ينزله من على كتفيه ، ويحذره من ان يعاود المحاولة ، حتى لا يؤذي انامله !

في الشهور الاخيرة ، عاود زيارته في الاحلام ، والغريب انه هو كان يرتد في هذه الاحلام طفلا ، بينما يظل العم سليم الشامي ، محتفظا بشبابه الدائم . في هذه الاحلام ، كان يهم في كل مرة بسؤاله عن الطريقة التي خرج بها من قريتهم ، ولكنه لم يظفر منه باجابة واضحة لهذا السؤال . ولا يزال الغموض يكتنف هذا اليوم ،الذي خرج فيه العم سليم من القرية ، كما يكتنف حياته كلها !!

كل ما يذكره عن هذا اليوم ، هو الظروف التي أحاطت به ، كانت « شقيقة شلبي » الاجير الذي يزرع في ارضهم ، قد اصبحت هي التي تقوم بخدمة العم سليم الشامي ، في منزله النائي . يذكر ان « شلبي » قاوم ذلك ، في اول الامر ، وفي النهاية ، خضع لاوامر ابيه ، الذي هدده بالطرد من ارضه . وجاء يوم لا ينسى ، قتل فيه شلبي شقيقته ، وأقسم ليقتلن العم « سليم الشامي » نفسه ، ولكنه لم يقتله ، لقد فوجيء الناس في قريته ، باختفاء العم سليم فجأة ، كما ظهر بينهم فجأة ، وآنذاك تكلم جميع الناس في القرية عن كل شيء ، حتى عن الاسباب التي قتل شلبي من اجلها شقيقته !

كانوا يتكلمون في همس ، وأحيانا في نحيب ، كيف تركوه يهرب ؟ وقتها صرخ شلبي : كيف تركتموه يبقى ؟ ولاول مرة ، رأى أباه يبكي ، ويقول بصوت يتخلل نحيبه : « من العار ان نظل نتكلم في هذا الامر . لقد رحل الرجل عنا فلننس هذا الموضوع ! » . شلبي وحده هو الذي لم ينس ، ولم يسكت ، ظل يتكلم ، ويتكلم ، حتى قال عنه الناس انه قد جن ، ثم اختفى بدوره ، عن القرية ، وقال بعض الناس انه يطارد العم سليم ليقتله ، وهمس آخرون : ضاق الناس بكلامه عن الموضوع ، وبجنونه ، فقتلوه ، وألقوا بجثته في الرياح ، ليستريحوا ، ويستريح !!

ها هو « العم سليم الشامي » يعود . يعود في الحقيقة ، لا في الحلم ، وبالتأكيد جيوبه ملأى بالحلوى ، ولن يندهش ، لو خرج الآن ، ليجد اولاده قد استيقظوا على صوته ، فاستأنسهم ، والتفوا حوله يسمعون قصة شائقة ورائقة ، عن عمهم الغائب ، او عن قرابة الجدود . قصة يصدقونها ، ويبتلعونها مع حلواه ، ثم تصحو زوجته لتسمع بدورها نفس القصة ، ويومض في عينيها ذات البريق ، الذي كان يلتمع في عيني امه . ذلك لص من نوع غريب ، ومرعب . ذلك انه لا يضع كرامة ضحاياه في مأزق . على الاقل ، في بداية الامر ، ولكنه سوف يضع حياته كلها ، وحياة اولاده مع الايام ، في مأزق ، لا مخرج منه !!

ماذا ينتظر ؟ لماذا لا يخرج الآن مرحبا ، ومستفسراً عن سر اختفائه وغيبته ؟ يجب ان يتركه يطمئن اليه في البداية ، حتى يتمكن من الحصول على سكين من المطبخ ، ثم ... لا ... لا يجب ان تكون ثمة بداية من اي نوع ، حتى لا ينزلق الى هوة الصمت المريب ، التي سقط فيها ابوه ، وسقطت فيها القرية كلها ! لتكن البداية هي الوصول الى المطبخ ، والحصول على سكين من هناك ، ولتكن لحظة العناق بين الرجلين ، هي لحظة البداية والنهاية . يعرف ان العم سليم لا يخدع بسهولة ، وقد يسبقه الى ما يسعى اليه . لكن ليحدث ما يحدث .. ليمت هو نتيجة ذلك ، بيد سليم الشامي ، او بيد احد اعوانه ، فموته بهذه الطريقة الفاجعة ، سوف يسد الطريق امام سحره الاسود . لن يسمع الاولاد لكلامه الرائق المسموم ، ولن يصدقوا الى الابد ، الرجل الذي قتل اباهم أمام عيونهم !.. دمه ، او دم سليم الشامي ، يجب ان يسيل امام عيونهم ، حتى لا تتكرر المأساة ! ليس هناك من طريق آخر . زوجته بدأت تتحرك بجواره ، حركة من يستعد لليقظة . كأنما ايقظها الصوت المسموم ، او ايقظها صوت الاولاد في الصالة ، وقد بدأوا يتحدثون مع العم سليم ! كيف نجح في استمالتهم بهذه السرعة ، وأزال عنهم خوف المفاجأة ؟ لا حدود لقدرة هذا الشيطان ، ولا سبيل للمواجهة ، سوى ان يتذرع بشجاعة، وذكاء بغير حدود كذلك ، لينقذ مغامرته من العقم . ماذا ينتظر ؟ فقفز من السرير نشيطا ، وكأنه لم يكن نائما قط . سرت في جسده رعشة دافقة ، رعشة رجل يواجه الموت ، فترتعش كل خلاياه بنبض الحياة. شجاعته وحدها هي التي ستنقل لسليم الشامي الخوف من الموت . فخوف انسان هو دائما ثمرة لشجاعة انسان آخر . تسلل الى المطبخ ، على اطراف اصابعه ، لينتهز فرصة انشغاله مع الاولاد ، هل وزع سليم اعوانه هنا وهناك ؟ لا يجب ان تنم خلجات وجهه عما ينتويه ! عاد من المطبخ واضعا السكين في جيبه .عاد الى حيث يجلس اللصوص في حجرة الصالون ، مرحبا ، وفاتحا ذراعيه للحظة المهلكة، اللحظة المهلكة تدنو منه ، كلما اقترب من سليم الشامي ، من عينيه الساحرتين ، اللتين تومضان ببريق الترحيب ، وكأنه صاحب البيت. البريق ينفذ في عينيه ، يخترقه ، يكشف طويته امام سليم الشامي . البريق النافذ يتكلم : « كنت احملك على كتفي » ، تعرف ان اذني لا تعركان ! منذ لحظات كنت ترتعد خوفا من اللصوص ، كنت مستعدا للتضحية بأي شيء ، لتنقذ كرامتك ، امام الزوجة والاولاد ! لن امس كرامتك . فلست سوى صديق لوالدك . لن تكون في حماقة شلبي ! واذا كان لا بد من العراك ، فلم العجلة ايها الاحمق ، وقبل ان تعرف شروطي ؟ لم لا تنتظر على حياتك ، فهي التي سوف تزهق ، لو واصلت حماقتك ، بيد احد اتباعي . الا تراهم ؟ لست أحب ان

الوث يدي بدمك . سأبقى بعدك ، لاقتل بيديّ هاتين ، التابع الذي قتلك . سأقنع اولادك ، بأنني الذي ثارت لهم ، ولن يحول موتك بيني وبينهم ، والزمن كفيل بأن ينسيهم كل شيء ! كن عاقلا كما كان ابوك ، فقد ظفر على الاقل بحياته ، انا مستعد للابقاء على حياتك من اجل أمك . كنت احبها حقا ، ولكنك فهمت خطأ هذا الموضوع . لماذا لا تتركني اشرح لك الامر ؟ كنت صغيرا ... ولو سمعتني الآن بعقل الرجل ، تتغيرت اشياء كثيرة . الدنيا تغيرت ، وكنت أظنك قد تغيرت ، وبدأت تفهم دنياك ! » .

– أهلا العم سليم الشامي . لا زلت شابا يا رجل !

– انا سليم المغربي . هل نسيت ؟

لا لن تخدعني عن حقيقتك هذه المرة . وليس يهمني ان تغير اسمك . العينان النافذتان تواصلان حديثهما المسموم ، وسط كلمات الترحيب ، وقبل ان يتعانق الرجلان عناقهما الدامي المهلك !

العم سليم يحمل « نور » صغرى اولاده ، على كتفيه ، كما كان يفعل معه ، وهو صبي ، يحملها كرهينة ، وكدرع ، في ذات الوقت ، لن تفلت مني هذه المرة ولو ماتت نور ! الدم وحده هو الذي سيمحو سحرك الاسود ، واو واصلت الاستماع الى حديث عينيك ، فسوف يبقى صوتك ، بينما يحتويني الصمت المريب الى النهاية . انا القاك هذه المرة في الحقيقة لا في الحلم ، وهذا جسدك ملء ذراعيّ ، واصبحت لا ارى عينيك ! يده ترتفع بالسكين في حركة خاطفة كالبرق، ويسمع صوت السكين تنغرس في ظهره ... في لحم ظهره وعظامه . تماما عند القلب !

اللحظة المهلكة تغشاهما معا بما يشبه الدخان ، بما يشبه الاختناق . ورغم كثافة الدخان ، يرى وجوه ابيه ، وأمه ، وشلبي ، وأهل قريته ، كأنما تجمعوا كلهم على صوت الصرخة المدوية التي اطلقها القتيل ! فمزقت سكون الليل ، وجمعت حوله ايضا الزوجة والاولاد .

* * *

– ماذا حدث ؟ قالتها الزوجة الملهوفة بلهفة ! وهي تحيطه بذراعيها في حنان !

– لا شيء ... كابوس ثقيل !

– بم كنت تحلم ؟

– لا شيء .. لا شيء !

– استرح قليلا ... سأفتح النافذة ، وأصنع لك شرابا ساخنا !

– ....

من الصالة سمع شهقة زوجته ، همّ بأن يسألها :

– ماذا حدث ؟ ولكنه لم يقدر ، أو لعله لم يجد لديه أقل رغبة !

هي التي عادت بنفسها لتقول له بصوت مضطرب : « باب الشقة نصف مفتوح ، التلفزيون ، والراديو ، وتمثال ابي الهول ، لا وجود لها في الصالة !.. لا بد انهم اللصوص . ربما سرقوا اشياء اخرى..

صمتت حين وجدت زوجها صامتا ، لا مباليا ، كئيبا .. قالت، وكأنما تداركت شيئا :

– ما بك ؟ بم تشعر ؟ لم لا تتكلم ؟

– ....

– لا يهم أي شيء ؟! المهم سلامتك انت ! كل شيء يمكن تعويضه ... المهم انت ، المهم سلامتك .

– ....

– لماذا لا تتكلم ؟ فيم تفكر ؟

« كيف يوضح لها فيم يفكر ؟ كيف يقول لها ان الرجل الذي بعجز عن التمييز بين اصوات الحلم ، واصوات الحقيقة ، لا يمكن ان يكون رجلا سليما . كيف يوضح لها ان الحقيقة اصبحت تراوغه هي الاخرى كالاحلام ؟ وان اللحظة الفاصلة بينهما ، تهرب منه دائما ؟ كيف يوضح لها انه لم يعد يملك سوى شجاعة الاحلام ، حيث تصبح كل المغامرات عقيمة ؟ كيف يوضح لها ذلك كله ، دون ان يدفعها الى العجز ، عن التمييز بين العقل والجنون في كلامه ؟ وقتها تذكر شلبي ، وتذكر انهم قتلوه ، فواصل الصمت . بينما صرخت زوجته صرخة مدوية ، تجمع حولها الجيران ... وكان النهار قد بدأ يطلع !

(القاهرة) **ابو المعاطي ابو النجا**

ملفات « الآداب » الخاصة

قررت « الآداب » ، كما سبق ان أعلنت ، ان تصدر ملفات خاصة تضمّ الى الاعداد العادية ، وتتضمن مادة ضافية من نتاج كل بلد عربي في مختلف الفنون الادبية (شعر ، قصص ، مسرح ، نقد ، بحث) . وستصدر هذه الملفات تباعا ، كلما توفرّت المادة الكافية ، عن ادب كل من البلدان العربية الآتية : الجزائر ، السودان، المغرب، البحرين، الكويت، ليبيا الخ.. كما تصدر ملفات خاصة اخرى عن الآداب السوفياتية ، الفرنسية ، الصينية ، الايطالية ، ادب اميركا اللاتينية ، الادب الافريقي الحديث ..

وتعدّ « الآداب » العدّة لاصدر اعداد خاصة عن « القصة العربية الحديثة » ،و « اتجاهات المسرح العربي الحديث » و « الفنون التشكيلية العربية » الخ ...

والادباء مدعوون الى المشاركة في تحرير هذه الملفات والاعداد الخاصة التي ستكون ، من غير شك، وثائق ادبية ومراجع هامة لكل اديب ودارس .